بين الخـــير والشر

قال الله تعالى فى محكم آياته « إن الإنسان لظلوم كفار » وقال أبو الطيب المتنبى رحمه الله :

الظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفة فلعـــلة لا يظـــلم

وقال المعرى عليه الرحمة :

أيوجد فى الورى قوم طهارى
أم الأقوام كلهم رجوس

وقد علق بعض الكتاب على قول المعرى بأن الطهارة مخلوقة والاختلاف على تقدير درجتها ، وهل هى عنصر نشيط مسيطر على النوازع الأخرى ، والعوامل الهدامة ، ولكن يخيل إلى أن الأجسام التى تتقمص الطهارة لا تكاد ترى إلا على وسادة الحالم ، فان الثقة معدومة أو تكاد ، فى طهارة النفس البشرية وخيارها ، فالكل يلعن النفس البشرية ويصفها بأوصاف تختلف شدة ولينا ، باختلاف الأفراد . بل إننا لنجد الكثير من الأمثلة والحكم التى قال بها المتقدمون ، نجدها عديمة الإيمان إطلاقا بالإنسان ، حتى أن بعضهم قال « اتق شر من أحسنت إليه » . عجباً أحسن إلى الإنسان وأكرمه ومع ذلك اتق شره ومكره ، فكيف الحال لو أسأت إليه ؟ !

والذى يهمنى فى هذه المقدمة البسيطة هو أن أتساءل هل الإنسان شرير بطبعه ، وميال إليه ؟ أم على العكس من ذلك كما يقول بعضهم إنه يميل إلى الخير أكثر من ميله إلى الشر ؟ أم هو بين بين ؟ أى تارة نجده شريراً ظالما قاسياً ، ومتسامحا وبارا بأخيه الإنسان تارة أخرى ؟

والواقع أن هذه المسألة من المشكلات العويصة التى ثار الجدل العنيف حولها فى الزمن الغابر ، فنجد مثلا فلاسفة اليونان قد قالوا بأن الإنسان مطبوع على الخير ، وتقول مدرسة أرسطو وأفلاطون إن العدالة جزء من الفضيلة ، وإن العاقل من كان متجهاً نحو الخير مبتعداً عن الشر ، أما من تسخره فطرته إلى المكروه ولا يميل إلى جانب الخير ، فلا يعتبر فى حكمهم عاقلا ، ولقد أجاب بعض الكتاب على هذا القول إجابة اتسمت بالنقد الشديد . فان القاعدة المذكورة لو طبقت لانحصر فعل الخير والعدل والفضيلة ، وهى جزء من الخير فى البلهاء والمغفلين ، والفلسفة العملية المستمدة من الشواهد والوقائع والنظريات القائمة على الخبرة والتجارب . والدورة العامة للعالم لم تكن فى يوم من الأيام أقل تفاضلا أو أقل اعتبارا مما يهرع إليه رجال الفلسفة النظرية ، فإن الإنسان والواقع يؤيدنا على ما نقول لا يستطيع أن يحمى نفسه من نفسه ، فالظلم من شيم النفوس ، ومن كان ضعيفاً أكلته الأقوياء وهذا ما التزمه ناموس الكون ، وحقيقة سنة الحياة ، ولن تجد لهذه السنة تبديلا . والواقع أن ليس هناك إنسان إلا وفيه من كل طبيعة سوء غريزة ، ولقد أرجع البعض قيام الحروب والمقاتلة بين البشر إلى العامل الغريزى والنزعة الشريرة التى تكمن فى نفس الإنسان ، ولما كنا لا نستطيع تبديل الطبيعة البشرية فان الحرب مثلا تبقى الملاذ الأخير تلجأ إليه الدول إذا تضاربت مصالحها ، واشتد بينها التنافس وعز عليها الوفاق « راجع فى ذلك كتاب التعاون الدولى والسلام العام لمحمد رفعت بك)

ومن المستحيل إزالة مثل هذه الغريزة من النفس البشرية لأن الغريزة عند علماء النفس لا يمكن الخلاص منها وإنما الممكن اعلاؤها والسمو بها نحو الخير والحق . ففلاسفة اليونان وشعراؤهم مثل — سفوكليس وسقراط وافلاطون وارسطاليس — يرون أن هناك ما يسمى بالقانون الطبيعى ، أو العدل المطلق وهو الذى توحى به الإرادة الإلهية إلى الإنسان ، فتجعله فى منزلة رفيعة . وقد تناول هذه المسألة بالذات طائفة من الفلاسفة أطلق عليهم اسم مدرسة الزهد ، وهذه المدرسة صاغت تلك النظرية صياغة قوية متينة ، وهى تتضمن أن العالم تتملكه روح قاهرة السلطان ، ينظر إليها من ناحيتين ، ناحية القوة العالمية التى تبرز فى نظام العالم الخارجى أو المادى ، وناحية العقل

العالمى أى العقل الإلهى الذى يوحى بمبـــادىء القانون الطبيعى ، والذى ينعم الإنسان بجزء منه يودع فى نفسه ، ويتولى قيادة قواه المختلفة ، فيهديها إلى الطريق السوى بحيث إذا سلكه فقد أطاع طبيعته الحقيقية وعاش حياة الطبيعة المثلى ، ولذلك ترى هذه المدرسة أن أقدس واجب على الإنسان أن يهتدى إلى مبادىء العقل العليا ، أو مبادىء القانون الطبيعى ، وأنه من الواجب على الإنسان أن يصل إلى المستوى الطبيعى الذى ينال بضبط النفس ، وإنكار الذات ، وكبح الشهوات ، هذا واجبه وسعادته معا ، لأن فيه خضوعا لوحى الطبيعة ، ولقد تأثر الرومان بنظرية هذه المدرسة إزاء الترف والبذخ والاسراف فى اللذات عن طريق استعباد الشعوب (راجع فى هذا الموضوع كتاب أبحاث التاريخ العام للقانون لعلى بدوى بك ، وكذلك كتاب الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده) .

ويقول علم النفس الحديث بأن غريزة الشر عند الإنسان مودعة فى نفسه ، كما هى فى الحيوان ، فاذا اختفت هذه الغريزة بعض الوقت فذلك راجع لظروف طارئة لا يستطيع الإنسان مقاومتها .

والواقع أن الخير والشر كلاهما اعتبارى ، فما يعد شراً بالنسبة للفرد قد يكون خيراً بالنسبة للجماعة ، وليس معنى هذا أن ليس هناك ضابط نميز فيه بين الخير والشر ، فالقتل والمقاتلة والظلم وإنزال العذاب بشخص برىء . كل ذلك ضرب من الشر والاثم ، وليس من الخير والبر بالإنسان ! !

وأخيراً فإنا نشكر العناية الإلهية بأن أتاحت لنا مجتمعا ساعد على إخفاء غريزة الشر والاثم وأدخلها فى جوف اللاشعور إنها سنة الله فى خلقه ، ولله فى خلقه شؤون ، وإنى لأرجو وقد طال الحديث أن أتمكن من الكلام فى هذا الموضوع مرة أخرى فى أعداد قادمة من « البعثة » إن شاء الله .

سليمان خالد مطوع

من قرارات المؤتمر الإسلامى العالمى

كتبنا فى العدد الماضى كلمة تحت عنوان : (لقد ضللنا الطريق) .

وقلنا من الواجب على كل مسلم عدم ارسال أبنائه إلى المدارس الأجنبية التبشيرية . التى نصبت لتحطيم الإسلام فى نفوس أبنائه . واقتلاع شجرة الإيمان من تلك القلوب الطاهرة الفتية

ونحمد الله أن جاءت قرارات المؤتمر الإسلامى العالمى فى التربية والتعليم المعقود فى (كراتشى) عاصمة الدولة الناشئة الباكستان . والذى اشتركت فيه ٣٦ دولة إسلامية . مؤيدة لما قلناه وداعية لما دعونا إليه . ولقد دعى المؤتمر فى جميع قراراته (إلى إنشاء جيـل مؤمن بالله متمثل بمكارم الأخلاق معتز بتراثه الاسلامى عارف بواجباته نحو ربه ودينه ونفسه . مجهز بالمعرفة الكافية فى كل ميدان من ميادين الحياة) تقول الفقرة الثالثة من قرارات المؤتمر الإسـلامى الموجهة إلى الحكومات والشعوب الإسلامية (بما أن مدارس البعثات الأجنبية فى جميع البـــلاد الإسلامية تقوم أهدافها على المعاكسة التامة لهذه الغاية وترمى إلى تهديم الإسلام فى نفوس أبنائه مهما اختلفت الستائر والألوان التى يستتر وراءها هدفها لذلك تقرر أيضا أن يسعى الأعضاء كل فى محيطه إلى تجنيب المسلمين من وضع أولادهم فى مدارس البعثات الأجنبية لأن عدو الاسلام لا يتصور أن ينفع أبناء المسلمين بقدر ما يضرهم وإلى إقامة رقابة حكومية على هذه المدارس الاجنبية من الناحية الدينيه ومنع الحركة التبشرية الاجنبية فى البلاد الاسلامية)

خالد احمد الجسار